

من زكريات لندره

الطمأنينة أخذت تتسرب إلى الفؤاد شيئاً فشيئاً حتى برحته  
الهواجس ، وغادره الوجيل

ها ... قد وصلنا إلى لندن !

لست غريباً عنك أيها المدينة العظيمة ! كنت آتيك من  
قبل زائراً ، وهانذا آتيك مستقيماً مستوطناً ، فرحني بالمهاجر  
الغريب ، وابتسمي له ، لعله ينسى عذاب الغربة ، وقسوة البحر ،  
والم المرض . لن تضيق به ذرعاً وهو فرد من تسعة ملايين ،  
فأكرمى وقادته ، واطردى وحشته ، لعله يذكر يوماً بالثناء ،  
ويعرف لك هذه اليد البيضاء ، وهو بين أهله وذويه

كنت أحدث نفسي بهذا ، والسيارة تطلقني إلى بيت كنت  
أعرج إليه كلما مررت بلندن ؛ ووقفت السيارة ، وطرقت الباب  
فخرجت ربة البيت ، ونظرت إلي فأنكرتني . رأيت جسماً هزيبلاً  
قد أمهكته الملل ، ووجهاً شاحباً قد لفحته الشمس فعدت سمرة  
خفيفة رهيبة ، وصمت لساناً متعلماً يني عن نفس مضطربة وفكر  
تعب ، فحملت وترددت في الكلام ثم قالت :

— أشفة يا سيدي فكل غرف المنزل مشغولة -

— ألا تعرفين بيتاً آخر أقضى فيه الليل ، فأنا على ما ترين ،

أخرج ما أكون إلى الراحة

فأشارت إلى بيت جارها ، فحيتها وانصرفت شاكرراً .

ثم طرقت باب الجارة وسألها في أدب ولطف ، فاعتذرت  
وأخذت السيارة مرة ثانية تمدوني في شوارع لندن ، وكلما رأيت  
فندقاً استوقفت السائق ، وذهبت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى  
وأسال في تردد وهيبة عن غرفة شاعرة أقضى بها سواد الليل ،  
وأريح جسمي التهمم وعقلي المهوك ، وفي كل مرة أجاب بأن  
الفندق غاص بالزوار ، وأعود أدراجي إلى السيارة لأواصل البحث  
ولسان حالي يقول : وافق حظاً من سى يجد . بيد أن لندن  
لاحت حينذاك وكأنها صحراء مقفرة ، أخب فيها بين رمال ونجاد  
وصخور ووهاد ، أو كأنني بمدينة قد عفت وأت عليها يد البلى  
والحدثان ، أو كأنني لا أزال على ظهر السفينة أطلب النجاة بين  
الماء والسما

آه يا لندن ... ! ما هكذا حسبتك ، أحقاً لا يوجد فيك

سرير لغريب يشكو المرض ويطلب الراحة ، وأنت عروس

## غريب

للأستاذ عمر الدسوقي

←————→

ولت شهور الصيف مسرعة وأذن مؤذن الواجب والدرس  
فلبت كما لبي رجال يرجون حسن الثواب ، وغادرت فرنسا والجسم  
هزيل ، والفؤاد عليل ، والذاكرة تنقص بصور من الحياة ذات  
ألوان ، طفت الباخرة تسير باسم الله مجربها ومرساها صوب  
« نيويهن » وما كادت تغادر الرفأ حتى هبت العاصفة، ففتحت  
أنواب السماء بماء منهمر ، وأتم الجو ، وزارت الريح وبزجرت ،  
وعبت بالسفينة كما يمبث الوليد بخذروفه ، وعادت لا تستقر على  
حال من القلق ، يجور بها الملاح طوراً ويهتدي ؛ تملو فكأنها على  
قفة جبل ، وتهبط فكأنها بين طيات الأخاديد ، والأمواج تظلمها  
من غير شفقة ولا رحمة ، وتدفعها بعنف ذات اليمين وذات اليسار  
وكأنها جبار يصب جام غضبه على صبي لا يملك لنفسه حولاً  
ولا طولاً ، اللهم إلا البكاء والمويل ؛ فكنت ترى الناس سكارى  
وما هم بسكارى ، ولكنهم من دوار البحر في ألم مرير ؛ وصرخ  
النساء يشق عنان السماء ، ومحب الأطفال يصدع الصخور الصماء ؛  
ولو كان للطبيعة الصاخبة قلب لرق ولان ؛ وأنى لها وقد أطلقت  
لشياطينها العنان فأذاقونا العذاب الهون ، أربع ساعات وكأنها  
أربعة قرون

وبعد لأي رست السفينة على الشاطئ الشمالي من بحر  
« المانش » وتنفت كما تنفس الناس الصعداء ، ووطئت قدمي  
الأرض ، وأخذت أتمسها بيدي لأرى أنابته هي أم متحركة ؛  
ونجوت بعد ما بثت من النجاة ، نجوت بعد أن كنت أصارع  
الداء والقيء ، والدوار والإعصار . نجوت بعد أن هتفت باسم أهل  
فرداً فرداً ، والشقة بعيدة بيننا ، وليث النية فاغر فاه ، والناس  
من حولي في شغل لكل منهم شأن ينشيه

تحرك القطار صوب لندن ، فأوجست منه في بادي الأمر  
خيفة ، إذ كنت لا أزال حديث عهد بالسفينة القلقة ، يد أن

قديمًا وحديثًا ، ولن أقبل من مخلوق مهما تكن سطوته ومكانته ، أن يلحقني هؤلاء الذين ينظر إليهم بعين الازدراء والامتهان ، ويعدهم دونه في الذكاء والمدينة . على أنني لست في مقام جدال ، فأقضى هنا ليلتي ، ولك أن تجربى رجال الشرطة إذا شئت ، ولا سيما إذا كان عذرك هو ما سمعت

ولجت الباب دون أن ألقت إليها ، وطلبت من الخادم أن تدخل متاعى ، ولحقتنى السيدة دهشة حيرى وقالت :

— مهلاً حتى أريك غرفتك ، وحذار أن تظن بي شراً ، فأنا براء من هذه العقيدة ، ولكنى أحرص على راحة عملائي ، ومنهم من يعارض أشد المعارضة لوجود رجل ملون بالفندق ، ويهدد بالرحيل ، وتشويه سمعة المنزل ، وأكثرهم في ذلك لجابجاً وغلوا ضابط متقاعد ، رأى الشرق عن كثب ، ودأب على ذكر نقائصه ، وعورات أهله ، وأنهم ليسوا إلا همجاً لم يشرق عليهم نور المدينة بعد ، وأن سكانهم معنا مدعاة لتعكير صفو حياتنا وهنأها إذ لكل إنسان عادة لا يستريح إلا لها . أما أنا فن أصل فرنسى ، وفي ديارنا لا يعيرون هذه الفروق الجنسية اهتماماً ، بيد أنى مضطرة لمجاراتهم ، ما دمت قد اخترت هذه البلاد موطناً لى ، واخترتهم عملاء لفندق ، فلعلك مقتنع بفكرتى . وحين أسمع لك بالبيت ها هنا لا أرجو إلا شيئاً واحداً ، هو أن تتحاشى رؤية هذا الضابط ، وسأرسل إليك طعام الفطور بفرقتك .

— شكراً لك ياسيدتى ، غير أنك أثرت في نفسى شعوراً ليس من السهل على إهماله ، ألا وهو محادثة هذا الضابط .  
— ليس إلى ذلك من سبيل .

— سنرى .  
وانطلقت إلى غرفتى أشد ما أكون تبعاً وإعياء ، ولم أكد أنتهى من خلع ثيائى ، والاستلقاء على السرير حتى أتت السيدة بكوب من اللبن ، وقالت في رفق :

— إنك مريض ، ولعلك بحاجة إلى دواء ، فهل لى أن أقوم بأية خدمة ؟

— شكراً ياسيدتى ، فالدواء عندى ، وسأتناوله بعد هنيهة ، عمى مساءً ، وسأراك غداً .

فكرت ملياً فيما رأيت وسمعت ، ثم غلبنى الإعياء فنتمت ، وما إن لاحت تباشير الصباح حتى نهضت ، وأنا أحسن

الإمبراطورية العظيمة وأكبر مدن العالم ؟

ليت شعرى ما للقوم كلما رأونى ازوروا عنى ورفضوا سوئلى ، بعضهم فى أدب وبعضهم فى خفة ؟ وهل أقضى الليل هكذا أجوب الشوارع والطرقات ؟  
أين مصر ؟ أين مصر ؟

وأخيراً تشجعت وطرقت باب أحد الفنادق ، فخرجت سيدة عوان ، يتم وجهها عن شىء من كرم النفس والأريحية ، فسألها :  
أعندك غرفة شاغرة ياسيدتى ؟  
— آسفة

— أنا كما ترى مريض متعب من سفر مضن شاق ، وقد قفنت وقتاً غير قصير أبحث عن غرفة فلم أوفق ، فإذا كان عندك مكان آوى إليه كنت أهلاً لشكر عميم ، وأجر مضاعف  
— آسفة ياسيدتى

— لا بد من البيت هنا مهما يكن الأمر  
وأخرجت متاعى من السيارة ، وتقدت السائق أجره وقد أربى على الجنيه ، والسيدة تتعجب من تصرفى  
— إسمحى لى ياسيدتى فلم أعد أقوى على مواصلة البحث  
— ولكن ...  
— ولكن ماذا ؟

— الفندق خاص بالإنجليز ولا تقبل فيه أجنبياً ولا سيما إذا كان أسمر البشرة

وهنا ثارت ثائرى ، وللصبرى نفس عزيزة تأبى أن تهان ، وبه كبرياء تلهب نار غضبه إذا مست كرامته ، ولا سيما إذا كان يبلد غريب ، وقد سمعت مراراً بمعاملة الإنجليز لسمر الوجوه ، ولكنى لم أجرب هذه القسوة من قبل ، وكنت حين يجلبنى أحجاب الفنادق أتمس العلل والمماذير ، ولم يحظر بيالى قط أنهم يرفضون لأنى « رجل ملون » . أما وقد سمعت هذه الكلمات ، فلم يعد هناك ريب فى اكتناه السر الذى تحيرت فى كشف طلاسمه منذ ساعة ، وخطبتها بصوت تم نبراته عن ثورة نفسية عنيفة وكرامة مهانة

— إنك لا شك مخطئة ياسيدتى ، فأنا لست زنجياً ولا هندياً ، ولا نوبياً ولا حبشياً ، بل لى مصرى ، تجربى فى عروق أنبل الدماء ، وحسبك أن تعرفى أننا من أرق الشعوب مدنية وحضارة

دعنا نسمع رأيك ، والرد عليه ، فطالما حدثتنا عن الشرق أحداث  
تقشع منها جلودنا ، ولم نجد بيننا من يدحض رأيك أو يعترضك ،  
وها قد سنحت الفرصة لمعرفة الحق .

فكر ما قالته ربة البيت ليلة أمس ، وزاد أن الشرق  
لا يصلح إلا وعنايه بيد الغرب ، وأن الشرقيين لم يخلقوا للمدينة  
الأوربية ، والأولى بهم الاستمسك بعاداتهم الممجية ، وترك التقليد  
الأعمى ، وأما مسألة الترفع فذلك أن لكل قوم عادة ، وليس  
توافق العادات بالأمر الهين ؛ ثم إن مركزنا الأدبي في العالم  
يقضى أن ترفع عن الشعوب الملونة ، ونشعرهم بمكانتنا التي لا تسامى  
حتى ندخل في قلوبهم الروع والرهبنة ، وحتى نعودهم الصغار والذلة .  
وتلك سياسة رجال الجيش البريطاني في المستعمرات ، وإن لم تفعل  
ذلك تجرأ علينا الأهالي ؛ وذهب سلطان الحكم وجلاله .

— آه ! الآن عرفت الحقيقة ، إذ لا يوجد هناك تفوق  
في الذكاء كما لا يوجد تفوق في ميدان الحضارة والاستعداد لتقبلها ،  
ولكن المسألة استعمارية بحتة . إن كان الأمر كذلك ، فإني أتنبأ  
لامبراطوريتكم بالزوال العاجل . إن هذا الترفع ، وهذه الكبرياء  
تبعد بينكم وبين تفهم نفسيات الشعوب المحكومة ، وتجعلها دائماً  
تشعر بأنكم أجانب ، وتغلق قلوبهم قيعاً ، وتشحنها غيظاً ، وتجرحوا  
في نفوسهم نار الثورة الهامدة ، فيهبون لطردهم والتشكيل بكم .  
لم لا تحتنون حذو العرب ، وقد أسسوا بنيان ملكهم على قواعد  
من المساواة والمحبة والإخاء ، ولنا تشرب الحكومون تعاليم دينهم  
ومدينتهم وتعلموا لغتهم ، واندمجوا فيهم . لست هنا لأعطيك  
والحكومة البريطانية درساً في فن الاستعمار ، ولكن الاستعمار  
في رأي ورأي العقلاء ، ليس استعباداً ، اللهم إلا في رأيكم أتم .  
— مرحي ، مرحي ! هكذا هتف بقية الزوار ، ما عدا  
الضابط الذي وجد في مجادلاً يكيل له صاعاً بصاع ويفرع الحججة  
بالحجة . ثم استأنفت الحديث منتهزاً فرصة صحته :

— يخيل لي أنك لم تعرف المصريين حق المعرفة ، وإلا كان  
حكمتك عليهم غير ما سمعت ، لست القضية يا صديقي ، قضية تفرقة  
في الألوان ، فها هي ذى اليابان قد برزتكم في ميدان الصناعة وغزت  
دياركم بمنتجاتها ومخترعاتها ، ولولا عهد الأتراك بمصر ، ولولا  
تدخلكم في شئوننا ، لكنا اليوم أمة لها في ميدان العلم والنور

من البارحة حالاً ، وأهدأ بالا ، غير أن الثمرة القومية عاودتني ،  
فأذكرتني مأساة أسس ، وأن واجبي هو تبديد هذه الأوهام  
والأباطيل من عقول هؤلاء الرضى بحمى الفطرسة والكبرياء ،  
وإقامة الدليل لهم على أن المصري ، وإن تكن السياسة قد جارت  
في حكمها عليه ، إلا أنه أبيض ذكي ليس من اليسير أن يسكت  
عن ثأر في ميدان الكرامة ، أو يصمت عيا في ميدان الدفاع  
عن القومية . فليت نداء حسي وشعوري ، وارتدبت ثيابي على عجل  
وأسرعت إلى غرفة الطعام ، والقوم لا يزالون نياماً ، وأخذت  
ألهو بقراءة جريدة حتى مضى بعض الوقت ، فأخذوا يغدون  
ويحيون ، دهشين ، متعجبين ، وأنا أردد تحييتهم في برود مصطنع  
يخني تحتها نفساً ثائرة على هذا الجهل بمنازل الناس وقيمهم ، وعلى  
هذا التفاق والرياء .

وأخيراً دخل الضابط ورد تحية الجلوس ، وأجال في الترفة  
نظره فلمحني ، وظننت بادي ذى بدء أن وجهه سيتجهم وأنه  
سيتهم ويدمدم ، ويشور ويفور ، ولكنه حيا بيروود وجلس ،  
فجلست تجاهه على الخوان ، وأخذنا نتناول طعام الفطور في صمت ،  
وكأنتنا في مآثم ، وهممت بالحديث مراراً غير أن الرهبنة عقدت لساني  
فلم أنبس ببيت شفة . وبعد لأي سنحت الفرصة ، فقدمت ربة  
الدار ، ووزعت على الجميع تماياها وابتساماتها ، ولم تظهر امتعاضاً  
لوجودي بل سألتني كيف قضيت ليلي ؟

— على خير يا سيدتي ، شكراً . إنني ليسرني أن أعرف  
بمجدينا الذي ذكرته أسس ، فهل تتكرمين بتقديمي له ؟  
— بكباشي سمح . صديقنا هذا من مصر ، وقد خدمته عنك  
أسس ، وأنتك زرت بلاده ، وعرفت أهلها وحدثتنا طويلاً عنهم .  
فأجاب الضابط في فتور .

— هذا حسن ، وأوماً إلى برأسه ، فقلت :  
— إنني ليسرني أن أتشرف بمعرفتك يا سيدي ، ولقد أبيت  
أن لك رأياً خاصاً في الشرق والشرقيين ، يملكك على الأنفة  
والترفع عن مخالطهم ، ولو سمحت وبيت لي هذا الرأي لكنت  
لك من الشاكرين .

فألقى على ربة المنزل نظرة كلها تعنيف وتأنيب ، ولاح عليه  
بعض التردد ، غير أن بقية الزوار حشوه على الكلام قائلين :